في الأدب الغربي

حزن أولمبيو

لبلكنوه فورمير

ترجمة ابن عبد الملك

لم تكن الحقول غبراء ، ولا السماء كدراء حين أقبل يقضي ذمام هذه الربوع التي سال في ثراها قلبه الجريح المتحن وانما كان ضوء النهار يتألق في أفق لازوردي غير محدود ، ويتدفق على بساط من أديم الارض ممدود . وكانت النسائم عابقة بالعطور ، والروح حافلة بالحضرة والزهور .

***

وكان الخريف طلق الجوانب ، والسماء مذهبة الحواشي ، والربى حانية الحمائل الونقة على السهل وقد ضربت في حضرتها صفرة قليلة .

والطيور هاتفة بأغاريدها الشجية القدسية ووجوهها الى الله التي يم عليه كل كائن ، ويسبح بحمده كل شيء ، كأنما كانت تقول له شيئا عن الانسان !!

***

أراد الولهان أن يرى كل شيء : يرى الغدير الطامي الذي يصطفق بجانب العين ، والظل البالي الذي استنفد ما في كيسها بالصدقة ، وسرحة الدوادر العنيفة الموجة وخلوات الحب في أجواف الغاب الغرامية ، والشجرة التي استغرقا نحتها في القبلات فذهلا عن كل شيء .

***

بحث عن الحديقة والبيت المنزل والبستان الحادر ، والدرازون الذي يغيب البصر من خلاله في تمشي منحرف . وكان يمشي مكسور الوجه من الحزن ، شاحب اللون كثير الهم فيرى والأسقام لدى كل شجرة شبح الايام الخوالي يقوم منتصبا على وقع خطاه المتئدة الثقيلة ! .

***

تجول طوله النهار على طول المسيل وقد ملك اعجابه وجه السماء الضاحك ، ومرآة البحيرة المصقولة .

ثم قيد بصره ما راعه من صور الطبيعة في الحقول ، فتأملها مليا ثم ذهب مع أحلامه حتى المساء .

تجول طيلة النهار ذاكرا والهفي عليه بخاطره الشديدة ناظرا من اعالي السوج دون أن يجرؤ على الولوج كأنه سلوك من مسالك المندر.

فلما أدنت الشمس بالمغيب احس في صدره وحشة القبر وفي قلبه لوعة الهم ، فجأر بالشكوى وهتف بالهوى يقول :

***

أيها الالم ! لقد اردت انا المشترك الخاطر السمور الفؤاد ان أعلم هل الاناء لا يزال محتفظا بالسائل ؟ وان أري ماذا فعل هذا الوادي السعيد بما خلفت فيه من قلبي ؟ .

ما اقدر الزمن اليسير على ان يغير كل شيء !

ايه ايتها الطبيعة ذات الوجه الضاحك والجبين الاغر ! ما اسرع ماتنسين ! وما أشد ما تقطعين العلائق الخفية التي تربط قلوبنا بكثرة استحالاتك وتغير حالاتك ! .

***

ان غرفنا التي اتخذناها من ورق الشجر الألف قد تهدمت .

والشجرة التي حفرنا عليها اسمينا قد ماتت أو تحطمت

ووودنا النابتة في الحظيرة قد عبثت بها ايدي الاطفال الذين يقفزون فوق الحفرة!

والعين التي كانت تشرب منها ساعة القيظ وهي هابطة من الغاب قد قام على موردها جدار ! !

لله ما كان أجمل يدها حين كانت تغترف بها الماء ثم تدعه يتساقط من خلال أصابعها كثير اللؤلؤ الرطب ! !

***

لقد رصفوا الطريق الغليظ الوعر الذي كنا نسير فيه جنبا الى جنب فترتسم على رمله التي قدمانا ، ويكون أثر قدميك الرقيقة الانيقة بجانب قدمي سخرية حسناء ، وضحكة استهزاء ! !

***

والحاجز الحجري الذي قام على حد الطريق حقيقة طويلة ذلك الحاجز الذي كان يحلو لها أن تجلس فوقه في انتظاري قد هد ركنه اصطدام العجلات الموقرة بالاعباء ، وهي آيلة تئن في الماء ! !

***

والغابة أصبحت حطاما هنا وبقيت أدواحها هناك ! ولم يكد يبقى من كل ما حملناه وتقمصناه شيء حي !

وأكمام الذكريات تبددها الرياح الأربع كحكومة من التراب الجامد البارد قد ألوت بها الريح الدبور ! !

واويلتاه ! ألم يعد لنا اذن وجود ؟ هل مضت مدتنا وانقضت تنا ؟ أما يرجعها الى صرخاتنا الضارعة الضائعة شيء ؟

النسيم يداعب الغصون وأنا أبكي ! ومن لي ينظر الي ولا يعرفني!

* * *

والآن سيمر غيرنا من حيث مررنا ، وسيرد آخرون هذا ورد الذي عنه صدرنا ، والحلم الذي بدأناه سيواصلون رؤياه ، ولكنهم لنا لا يستطيعون أن يبلغوا مداه !

* * *

وذلك لأن الناس في هذه الحياة لا يتممون ولا يكملون ، سواء في ذلك لخيرون والطيبون

وسيستيقظون جميعا في مكان واحد من الحلم ، اذ كلهم يبدأون هذا العالم ثم يتممون في غيره

* * *

أجل ستأتي نوبة آخرين ، فينعمون في ظلال هذا المكان الساكن من الفاتن بما وهبت الطبيعة للحب من خيال وجلال ولذة !

* * *

وسيرث غيرنا حقولنا وطرقاتنا وخلواتنا ، ويستولي من لا نعرفين على غابتك يا حبيبتي ! ويقبل بعض النسوة الهوج الى هذا الماء يتردد ، فيكدرن غمره الذي لمسته قدماك العاريتان فتقدس !

* * *

يالله ! اذن ذهب الحب الذي أحببناه في هذا المكان باطلا ! ولم يق لنا شيء من هذه الربوات المزهرة التي امتزج فيها لهبانا فانصهر ما جسمانا واتحد قلبانا

هيهات قد استرجعته الطبيعة التي لا ترحم ولا تألم !

* * *

بالله يثنى ايتها المسايل المرعة ، والجداول المترعة ، والعرائش زقرة بالعناقيد ، والاغصان المثقلة بالاعشاش والاغاريد ! وخبرني يا المقار والآجام والادغال ! هل تطربن قلباً غير قلبنا بهذه الاغاني ، ناغين حباً غير حبنا بهذه الاناشيد ؟

* * *

لقد كنا نعرك مرامي كلامك ، ونجمل مشاعرنا كلها اصداء جم انغامك ، ونرهف اسماعنا لالتقاط ما يدر احياناً من بليغ مرك . دون أن نميط الحجاب عن خبيئة سرك !

* * *

ايتها الطبيعة المجلوة في هذا الخلاء الجميل !

متى رقدت انا وهي تحت صفائح القبر فهل تظلين جامدة أمام تنا وموت حبنا ، تواليين حفلاتك واعيادك ، وتواصلين بهاتك نشادك ؟

الا تقولين لطيفنا اذا ما رأيتهما يجولان بين رباك وخلواتك ، وفيا الفا من جبالك وغاباتك ، ما يقوله جميع الاصدقاء لاخوانهم الفدماء من سرائر القلب ومجاوى الضمير ؟

* * *

هل تستطيعين أن ترى دون أن يلوعك الحزن ويرمضك الاسى شبحينا يطوفان بمواقع خطواتنا ، ومواضع خلواتنا ، وان تريها تعودين في عناق مكذب الى ينبوع منتحب يئن في خفوت وهمس ؟

* * *

واذا مالجأ عاشقان الى جوارك ، واختفيا عن العوازل تحت ستارك ، وخبآ سرورهما بين ازهارك ، فهل تسرين اليهما هذه الكلمة :

« أيها الراتعان في رياض الحياة ! اذكرا من طوح بهما الدهر في قفار الموت ! »

* * *

لعمرك ماهذه الروح والعيون والغابات والسموات والبحيرات والسهول والحزون الا عارة مستردة ! يعيرنا الله اياها لحظة من الزمن نضع فيها تلوينا وأحلامنا وغرامنا ثم يستردها .

* * *

ثم يعافى بعد ذلك سراجنا ، ويدفن في حلك الليل شعاعنا . ثم يوحى الى الوادي الذي انطبعت فيه صورنا ونفوسنا أن يطمس آثارنا ، ويمحو أصداءنا وأخبارنا .

* * *

لا بأس ! أنسينا أيتها الدار ! واكرينا أيتها الحديقة ! ولا تذكرينا ياظلال ! واخلي عتبتنا ياعشب ! وغط آثار قدمينا ياوسج ! وغردي أيتها الطيور ! وتدفقي أيتها الجداول . وتكاثري أيتها الأوراق . فان الدين طويتم صحيفة ذكرها لا ينسيان !

وكيف تنسى وأنتم خيال الحب نفسه ! أنتم الراحة التي يلاقيها المسافر في وقدة الصحراء ، والحلوة العظمى التي بكينا بها أحر بكاء ، وكل منا يده في يد الآخر !

* * *

كل الاهواء تمضي مع العمر . بعضها يحمل نقابه وبعضها يحمل مديته كدير النحل [1] يسافر جذلان شاديا وجماعته تضمحل وتقل وراء الاكمة .

* * *

الا اباك أيها الحب فلا شيء يمحوك ! انت السحر وانت الفتنة ! وسواء أكنت متسالا بدويا أم مصباحا حضريا فأنت الذي تشرق في العيون وبين الضلوع ، وتستولي علينا بالبسمات وخاصة بالدموع ! ان الناس في الشباب يلعنونك ، ولكنهم في الشيب يعبدونك !

(١) دير النحل الهوائم